عدد ٢٦ السنة الثانية

المنار

١٣١٥

مصر في يوم السبت ٣ جمادى الاولى سنة ١٣١٧ الموافق ٩ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٩٩

كرامات الاولياء

يعلم الناظرون في تاريخ الامم المختلفة الاديان والنحل ان كل أمة منها تدعي وقوع خوارق العادات وانواع الكرامات على أيدي رجال الدين ورؤسائها الروحيين وتنقل من ذلك في كتبها ما يتوهم الناظر فيها انه بلغ مبلغ التواتر المعنوي على الاقل . وان اولئك الرؤساء يتخذون هذا الاعتقاد من الامة ذريعة للتصرف في ارادتها ووسيلة للسيطرة عليها بل لرفع أنفسهم الى مرتبة الربوبية . وادعاء ان قوة غيبية . مفاضة عليهم من الحضرة الالهية . يتصرفون بها في العوالم الكونية . وقد كتبنا في العدد العاشر من هذه السنة مقالة في مسئلة (التصرف في الكون) بينا فيها انه لا قوة غيبية وراء الاسباب الظاهرية الا الله تعالى وحده . وحيث كنا لا ننكر ان الله تعالى قد يهب لبعض أوليائه من الكرامة ما لا يهب لغيرهم وعدنا في تلك المقالة بان نكتب مقالات مخصوصة في كرامات الاولياء وقد آن لنا ان نتجز وعدنا . والنظر في هذه المسئلة من وجوه — حقيقتها والحكمة فيها . حجج القائلين بجوازها ووقوعها . حجج المنكرين لها . ادعاء جميع الامم لها . منفعة الاعتقاد بها ومضرته . تمحيص الحقيقة فيما نقل من الكرامات . وقد فصلنا جميع ذلك في خاتمة كتابنا (الحكمة الشرعية) وافتتحنا الكلام هناك بمقدمة في نواميس الكون واثبات الالوهية والكلام في النبوات والمعجزات فالكرامات وانا نثبت ههنا معظم تلك المقدمة لتكون اساساً لبقية المسائل وهي

(يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

جرت سنة الله تعالى كما اقتضته حكمته في هـذه النشأة الاولى والحياة الدنيـا بان يكون جميع مايحـدث فيها من الذوات والاعيان الحيوانيـة والنباتية والجمادية وما يطرأ عليها ويعتورها من الاحوال المختلفـة ويتناوبها من الشؤون المتباينـة وما بين ارضنا هذه وسائر كواكب النظام الشمسي من الارتباط ـ كل ذلك جارٍ على نواميس لااختلاف فيها وسنن ثابتة لايعتريها تبديل ولاتحويل . فهذه الحجارة ونحوها من الاجرام التي تزيد على الهواء بالثقل النوعي تسقط الى جهة الارض والدخان وجميع الابخرة التي هي اخف من الهواء ترتفع الى جهة العـلو حتى اذا ماتكاثفت وزاد ثقلها على ثقل الهواء في طبقة من طبقات الجو وقفت عن التعالي والارتفاع وربما تكاثف مافيها من الماء المتبخر بسبب البرودة فعاد كما كان سائلا او جمداً وهبط لثقله الى الارض ثم تخلل في الاتربة وفي هذه الحالة يدلي اليه النجم والشجر خراطيم جذوره فيمتص منه مايحتاجه لحياته النباتيه . وقد يتخلل الارض ويسري فيها فيعترض سيره صخور ونحوها فيجتمع اليهـا ويزداد عليه الضغط من الجهة التي جرى منها حتى يندفع الى سطح الارض ويتفجر فيكون ينبوعا يرد الحيوان الناطق والاعجم فيعل منـه وينهل . وللناس في الماء منافع اخرى حاجيـة وكمالية وناهيك ببخاره الذي هو روح العمران في هذا الزمان . ولولا ان ذلك كله جارٍ على قوانين ثابتة وسنن مطّرده لما تيسر الانتفاع به للناس

وهذا النبات الذي يسقى بماء واحد وثبتت أصـوله في تربة واحدة وسبحت اغصانه وشعابه في هواء واحد حصل فيه التباين والتخالف في اشكال ثمراته والوانها وطعومها وروائحها وخواصها فكان أنواعا متمايزة وازواجا متعـددة ومع ذلك لايحمل نوع منها ثمرة نوع آخر ولايزاحمه في خاصيته التي اودعت فيه والا لما اهتدى الناس للانتفاع بها ولفشل سعيهـم بعدم حصول المرء على مطلبه أو اصابته غير غرضه وربما افضى بهم اختلال هذا النظام الى التلف والقاهم في مهاوي الهلكة فان بعض النبات مغذ يقتات منه الانسان وبعضها سام تهلك به الابدان . فلو ان خواص العقاقير تنتقل احياناً الى الفاكهة وبالعكس لوقع المحذور الذي أشرنا اليه

وهذه الحيوانات العجم من نعم وطير ووحش وسمك وهوام فان كيفيات معيشتها وتوالدها وحفظ ذريتها وأشكال اعضائها وبنيتها الموافقة للقيام بأود حياتها ـ ككون الطير ذا منقار يلتقط به الحبوب ونحو الصقر والشاهين ذا منسر ومخلب يمزق بهما اللحم ليطعمه . وكون الطويل الارجل منها طويل العنق على نسبة طول رجليه ليسهل عليه تناول الغذاء حيث لم يكن مما يتناوله بالايدي. وكون الضعيف منها أقدر على العدو والطيران أو الحيلة والروغان من القوي الذي من شأنه اقتناصه وافتراسه ليكون استيلاؤه عليه من تقصيره لا من طبيعته ونقص خلقته . وكونها تنفر مما يضرها بالطبع والالهام الى غير ذلك من الحكم التي لا تحصى ـ كل ذلك جاء على نظام بديع وسنن مطردة وبه تيسر للانسان انتفاعه بما يمكن الانتفاع به واحترازه مما يخشى ضرره

وهذا الانسان في جميع اطواره وادواره من بداوة وحضاره وشظف ورفاهة وعلم وجهل وقوة وضعف وعزة وسلطان وذلة وامتهان وسائر أنواع السعادة والشقاء التي تتناوبه مجتمعاً ومنفرداً ـ كل ذلك منطبق على السنن الالهية والنواميس الكونية فالاعمال نافعها وضارها تابعة لمعارف العاملين وما انطبع في نفوسهم من العقائد والاخلاق وما تربوا عليه من العادات . ولولا ان لترقي الانسان وتدليه سنناً ثابتة وقوانين طبيعية مطردة لما انتظم لهذا النوع حال ولما طمع ببلوغ مراتب الكمال

خلق الله الانسان في أحسن تقويم وهداه النجدين فكان بفطرته مستعداً التعرّف سنن الخليقة واستخراج النواميس من سير الطبيعة ولكنه ظل غافلا عن هذه السنن ومنصرفا عن استنباطها من جزئياتها الا مايبدو للنظر ويسبق الى الفكر حتى منحه الله تعالى بفضله الدين الاسلامي الذي هو دين الفطرة بمقتضى قوله تعالى « فطرة الله التي فطر الناس لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » فاستلفته القرآن الى هذه السنن وبين له انها لن تتبدل ولن تتحول . فالتفت هذا النوع بذلك الى الخليقة وصار يتعرف نواميسها رويداً رويداً بمقتضى ناموس التدرج في الارتقاء . وقد شرح حكماء العلماء ماوصل اليه علمهم من تلك النواميس والقوانين التي طبع الله عليها هذا العالم وفصلوا ماعرفوه من سننه فيها وجعلوا ذلك فنوناً كثيرة كتبوا فيها الاسفار ودونوا فيها الدواوين ووضعوا لها

الاصطلاحات كما هو شأنهم في سائر فنون العلم ولا ينفكون في كل عصر من الاعصار التي استحكمت فيها الحضارة ينقبون عنها ويبحثون فيها ابتغاء الزيادة وحرصاً على كمال الاستفادة . وما كان اجدر هؤلاء الواقفين على أسرار الطبيعة (وأعني بالطبيعة النظام الذي أنشأ الله الكون وطبعه عليه) ان يكونوا من أقوى الناس ايماناً بالله الحكيم القدير الذي احسن هذا الابداع وأتقن هذا الاختراع و «اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . لكن قد ذهل الكثيرون منهم باتقان الصنعة عن وجود الصانع وعظمته والمتأخرون الذين وصلوا الى ما لم يصل اليه من كان قبلهم وعرفوا من سنن الاجتماع الانساني ما لم يكن يعرفه الناس قبل هذا العصر الذي مبدؤه ظهور الاسلام قد غفلوا عن القرآن الذي كان منشأ استلفات الانسان . الى هذا النوع من العرفان . لاسيما وقد بعد العهد وطال الزمان وأعرض المنتسبون للقرآن . عن فنون الطبيعة وعلم العمران . اشتغلوا كما قلنا بالصنعة عن الصانع وغرّهم شيطان الوهم الخادع بان هذه النواميس هي الفاعلة والمدبرة لهذه الاكوان مع انهم ما علموا الا أقل القليل منها « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وعللوا الكثير من ذلك القليل بعلل لا يقبلها العقل وقد صرح بعضهم ان النواميس ليست عللا وأسبابا للترتيب والنظام الطبيعي . وانى يحكم العقل بان ثبوت كل جرم من الاجرام الفلكية وحفظ النسبة بينه وبين الكواكب الاخرى انما هو بعلة شيء مجهول أو معدوم وهو الذي سموه الجاذبية العامة وأين هذه الجاذبية وما حقيقتها وما الدليل عليها . نعم اذا قالوا انا وجدنا الامر هكذا فوضعنا له هذا الاسم فانا نسلم لهم أذلا مشاحة في الاصطلاح ثم انا نقيم الدليل من ذلك على ان له صانعاً حكيما . وكذلك يقال في جاذبية الثقل وجاذبية الملاصقة والالتصاق وغيرها

واكثر الناس قد ارشدتهم الفطرة أو هداهم النظر الى انه لابد لهذا الكون المحكم الصنع البديع الاتقان من فاعل مدبر له ثم اخطأوا في تعيينه لما عنّ لهم من الشبه في ذلك فبعضهم زعم انه الشمس او كوكب آخر وتخيل بعضهم ان صانع العالم هو جوهر النار (واذا التفتنا الى قول المحققين ان النار عرض يكون الله العالم عند هؤلاء عرضا تابعاً في وجوده لغيره) . وبعضهم اسند الالوهية الى بعض الحيوانات ومنهم من ارتقى به هذا الوهم فاضافها الى بعض البشر — الى غير ذلك من النحل التي لا تحصى . وشبهة الذين

أشرنا اليهم هي ماشاهدوه من المظاهر العجيبة التي اظهر الله تعالى بها الشمس والنار أو قوة الحرارة وما خص به بعض الحيوان من المنافع أو المضار وما ظهر على أيدي بعض البشر من الخوارق والعجائب التي لم تعهد من امثالهم . قالوا ولولا ان سر الالوهيـة في هذه الاشياء لما وجدت فيها تلك الخصائص أو المنافع دون غيرها . والحاصل ان البشر يشعرون بفطرتهم ان للعالم الهاً ومدبراً به قامت الاكوان(*) ولما كان غيباً مطلقاً لم تهتد نفوسهم الى التوجه اليـه وعبادته وتعظيمه الا بتقييده بمـا يعرفون فكان من أمرهم ما كان

فتبين بهذا ان العقل البشري لايستقل بمـا يجب من المعرفة الحقيقية لله تعالى وما ينبغي ان يقوم له به العبد من العبادة والشكر في مقابلة نعمه التي لاتحصى ولذلك تفضل سبحانه وتعالى على الخلق فارسل اليهم رسـلا من أنفسهم جعلهم سفراء بينهم وبينه في بيان مايرضيه من الناس ان يكونوا عليه وأيدهم بما يدل على صدقهم من خرق بعض تلك النواميس على أيديهم ووقوع بعض الامور على خلاف ماتقضيه السنن المطردة التي لم يعهد فيها خرق وانتقاض أو فعل شيء لم يعهد في العالم ولادخل فيـه للبشر بصناعة ولا كسب بحيث يجزم العقل بانه لايقدر على ذلك الا الذي سن تلك السنن ووضع تلك النواميس وأبدع جميع الاشياء بقدرته الباهرة . فهدى الله تعالى بهم من شاء من الخلق فعرفوه بمايجب أن يعرف به وعبدوه بما يجب ان يعبد به . وقد مضت سنة الاولين بان المؤمنين بالانبياء يكونون في زمنهم بغاية الطاعة والخضوع وكمال الانقياد للشرائع والاتباع للهدى وانه كلما طال الامد على البعثة وبعد العهد بالانبياء تقسو القلوب ويميل الناس عن الحق ويؤولون تعاليم أنبيائهم بحيث تنطبق على أهوائهـم ومنهم من حرفوا حتى في اللفظ ومن نسوا حظاً ممـا ذكروا به فكان لذلك من رحمة الله تعالى بعباده انه كلما طال الزمن من بعد

(*) قرر هذا المعنى في درس التوحيد الذي قرأه في الازهر الاستاذ الكامل الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وقال ان الشرذمة التي انكرت وجود صانع الكون قد طرأت على نفوسها اعراض حرفتها عما في أصل فطرتها فهي لقاتها وللمرض الروحي الذي طرأ عليها لايصلح انكارها نقضاً للقاعدة العامة التي ثبتت في جميع أصناف البشر وهي الاعتقاد بالالوهية

رسول يبعث اليهم رسولا آخر حتى ختم الله النبيين بالسيد الاعظم والسند الاقوى والاعصم عليه وعلى آله افضل الصلاة والتسليم وعلى جميع الانبياء والمرسلين وآلهم أجمعين وكان مما أنذر به امته في كتابه العزيز قوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » ولكن لا تبديل لسنة الله فانه كلما طال الامد وبعد الزمان تقسو القلوب ويفسق الكثير عن امر ربهم

من مقتضى ختم النبوة ان تكون شريعة الخاتم عليه السلام باقية الى آخر الزمان وان تكون الآية الدالة عليها باقية ببقائها ولذلك كانت المعجزة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم محفوظة من التحريف والتبديل وهي القرآن الكريم « الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . وحيث قد جعلوا كرامات الاولياء تابعة للمعجزة دالة على صدق نبوة من ينتسب الولي الى دينه ويعرف بكمال الاتباع له كان وجودها بمعنى وجود المعجزة يجذب بالقلوب الى مرضاة الله تعالى والاعتصام بالدين قال البوصيري

والكرامات منهم معجزات حازها من نوالك الاولياء

وقال العلامة ابن حجر الهيتمي بعد ان ذكر ان الكرامة تحصل بكمال الاتباع « والحاصل ان كرامة الولي من بعض معجزات النبي صلى الله عليه وسلم لكن لعظم اتباعه له اظهر الله بعض خواص النبي على يدي وارثه ومتبعه في سائر حركاته وسكناته » ونقل عن الامام اليافعي انه قال ان كرامات الاولياء من تتمة معجزات النبي صلى الله عليه وسلم لانها تشهد بالصدق المستلزمة لكمال دينه المستلزم لحقيقته المستلزم لصدق نبيه فيما أخبر به من الرسالة وكانت الكرامة من جملة المعجزة بهذا الاعتبار اه وقال العلامة تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى « اعلم ان كل كرامة ظهرت على يد صحابي أو ولي أو تظهر الى يوم القيامة فانها معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لان صاحبها نالها بالاقتداء به وهو معترف له بانه سيد البشر الذي من بحره تستخرج الدرر » اه

هذا ما جاء نا في كتابنا (الحكمة الشرعية) في معنى المعجزة والكرامة والحكمة فيهما وسنذكر بقية المباحث في الاجزاء التالية ان شاء الله تعالى